البروفسور عادل برباري: نصف قرن من القتال في الحرب ضد "القاتل الصامت"

كتبت لارا سعد مراد

كثيرة هي أنواع "الجرائم" في العالم وأبشعها القتل، وأبشع أنواع القتلة هو القاتل الصامت، الذي يقتل ببطء وسكوت فلا يراه أحد ويطبق على ضحيته من دون انذار ولا ترصد رسما... ومرض ارتفاع ضغط الدم هو في المجال الصحي واحد من أخطر القتلة لأنه تاريخيا القاتل الصامت الذي تجند الباحثون والأطباء في الحرب ضده، وهي حرب لم تحسم بعد وان كان للأطباء فتوحات مهمة فيها تم خلالها الحد من أضرار ذلك القاتل الصامت والتحكم الى حد كبير بآثاره المدمرة على جسم الانسان...

البروفسور عادل برباري رائد من رواد هذه الحرب، سلاحه الطب والعلم وبذته البرنس الأبيض الذي عشقه منذ الطفولة، سجّل انجازات مضيئة في ميدانه تشهد لها سنوات من العمل الدؤوب بلغت حتى الآن أقل بقليل من نصف قرن...

ولد البروفسور عادل برباري في السنغال عام ١٩٣٣ تخرج أخصائيا في الطب الداخلي من الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٦٣ قبل أن يتخصص بأمراض الكلى وضغط الدم في مستشفى «بيتر بنت بريغهام» الجامعي التابع لجامعة «هارفارد» في بوسطن حيث شغل منصب نائب رئيس قسم الكلى وضغط الدم لمدة عام واحد قبل أن يعود الى لبنان وتحديدا الى مستشفى الجامعة الأميركية عام ١٩٦٧ فانخا مسيرة طبية مضيئة تبعتها مسيرة تعليمية في الجامعة عينها بدأت عام ١٩٦٧ . والمسيرتان مستمرتان حتى الآن تتوجهما مناصب علمية عدة وأوسمة وميداليات تكرم تقديرا لعطاءات طبية وعلمية وانسانية هي نتاج فكر نادر وقلب أكثر ندرة ينضح طيبة وتواضعا لا تراهما الا على وجه الكبار...

البروفسور برباري سجل حافل بالمناصب والمسؤوليات فهو بالاضافة الى ممارسة الطب والتعليم حتى اليوم، كان وما زال عضوا ورئيسا ومسؤولا في عدد من الجمعيات العلمية، فهو عضو الهيئة العليا ومؤسس الجمعية اللبنانية لمكافحة أمراض ضغط الدم منذ العام ١٩٧٩ ورئيسها لمدة ٢٠ عاما، وأمين عام الجمعية اللبنانية لتقدم العلوم منذ ٢٠ عاما، عضو مجلس ادارة المجلس الوطني للبحوث العلمية منذ ٢٠ عاما أيضا، رئيس تحرير مجلة «المجلة الطبية اللبنانية» التابعة لنقابة الأطباء في لبنان منذ ١٠ سنوات، عضو مؤسس لدائرة الطب الداخلي في الجامعة اللبنانية، عضو الرابطة العالمية لمعالجة أمراض ارتفاع ضغط الدم، عضو في الجمعية الأوروبية لأمراض ضغط الدم... وللبروفسور برباري كتب وأبحاث ومقالات ومحاضرات طبية وعلمية عدة في مجال اختصاصه منشورة في مجلات عالمية محكمة، كما أنه حائز على ميداليات تكرم عدة يذكر منها جائزة الامتياز العلمي من الجمعية اللبنانية لتقدم العلوم، الميدالية الذهبية للرابطة العالمية لمعالجة أمراض ارتفاع ضغط الدم، الميدالية الذهبية لخريجي الجامعة الأميركية وغيرها من جوائز التكريم...

لماذا "القاتل الصامت"؟

ان لقب «القاتل الصامت» لم يطلق على مرض ارتفاع ضغط الدم من دون سبب بل لأن المعايير العلمية تقول أن ضغط الدم المثالي هو ١١،٥ على ٥،٧ وما يزيد على ذلك يرفع من نسبة الاستعداد للمشاكل، علما ضغط الدم البالغ ٩،١٣ على ٩،٨ هو جرس انذار ينذر ببدء مرحلة الخطر، والخطر الأكبر يكمن عند هذا الرقم لأن صاحب الضغط المتراوح بين ١٤ و ١٦ على ٩ أو ١٠ لا يشعر بأي عوارض رغم أن الأضرار على الشرايين والكلى وسائر أعضاء الجسم قد بدأت تقع فعلا، ولهذا السبب دعي هذا المرض ب"القاتل الصامت".

وتشير الأرقام العالمية كذلك الى أن ما بين ٣٠ و٤٠٪ بالمئة من البشر لديهم استعداد لارتفاع ضغط الدم والاصابة بالأمراض المرتبطة به مثل أمراض الكلى والقلب والفالج والخرف.

ان أهم العوامل التي تؤدي الى ارتفاع ضغط الدم هي الوراثة كما يؤكد البروفسور برباري، مشيرا الى أن البدانة وقلة ممارسة الرياضة واستهلاك المشروبات الغازية والمأكولات الجاهزة أو السريعة التحضيرالغنية بالملح والدهون والسكريات المضرة هي أسباب أخرى تؤدي الى الاصابة بأمراض ارتفاع ضغط الدم، وهذا ما يؤدي غالبا الى ارتباط ارتفاع الضغط بأمراض البدانة مثل الكولسترول والسكري، كما أن بعض الأدوية من فئة المسكنات ومنع الحمل وغيرها تسبب ارتفاع الضغط وتتطلب مراقبة طبية لمستخدمها، أما الضغط النفسي أو"السترس" فلا يسبب ارتفاع الضغط الا لمن عنده استعداد لذلك.

البروفسور برباري متسلما جائزة الميدالية الذهبية لخريجي كليات الطب في الجامعة الاميركية في بيروت

أن علاج هذا المرض حسب البروفسور برباري يتم عن طريق الأدوية الخافضة لضغط الدم والتي تطورت بشكل ملحوظ في السنوات العشر الأخيرة لجهة الغياب شبه التام لآثارها الجانبية وتعزيزها بمكونات تحمي الشرايين بالاضافة الى خفض ضغط الدم، ويضيف البروفسور برباري الى أن الحلول النهائية غير موجودة لابل ان نسبة نجاوب المرضى مع الأدوية ليست مضمونة بعد وهو أمر يصفه ب"الفشل الطبي" ولكن القدرة على السيطرة على ارتفاع الضغط قد تعززت بالفعل، وخصوصا اذا ما ترافقت مع عادات حياتية صحية مثل ممارسة الرياضة واتباع نظام غذائي صحي وشرب المياه باستمرار.

بين الآلة والسمّاعة

يرى البروفسور برباري القطاع الصحي في لبنان ناجحا وبخاصة اذا قورنت امكاناته مع امكانات الدول الكبرى، وذلك رغم بعض الأخطاء الطبية التي يمكن أن تقع كون الطبيب هو انسان وقابل بالتالي لارتكاب الخطأ، ويتفاءل بشكل خاص بالكوادر الطبية وبخاصة الشبابية منها لأنها غنية بالطاقات والطموحات، ولذلك يرى أن نجاح قطاع الطب في لبنان يكمن في» سماعة» الطبيب أكثر مما يكمن في التجهيزات الاستشفائية.

ومقابل النجاحات الفكرية للبناني يراه البروفسور برباري «شاطرا في كل شيء ماعدا السياسة» لأنه ينتمي الى طائفته أكثر من انتمائه الى وطنه، ولذلك فان المواطن اللبناني غير موجود لأن المدارس لا تعلم المواطنية ولا الديمقراطية الحقيقية، وهما ركيزتان اساسيتان لبناء وطن لا تكتسبهما الشعوب فجأة بل بالتربية والتعلم منذ الصغر...

ولهذا السبب لا يفكر البروفسور برباري بأي طموح لمنصب سياسي ويؤكد أننا شعب «مستعجل... نستعجل كل شيء حتى الديمقراطية فنفشّلها بأيدينا، ونستعجل حتى الساعة والدقيقة فنحرق الوقت بقلة احترامنا له...»

العلم والايمان

ولذلك يترك السياسة لغيره وينصرف الى الطب والعلم والأبحاث وكل ما يفيد الانسان وينفعه، يكتفي بميدانه وبالبرنس الأبيض الذي عشقه منذ طفولته الأولى وصمم أن يرتديه رغم أن عائلته لم تكن تضم طبيبا يستلهمه أو يتأثر به، فهو لم يتأثر بشخص بل بصفة وهي صفة التواضع كما يقول، وان تأثر بأحد فبأصدقائه وزملاء العمل والعلماء و»الكبار» الذين عمل معهم فكانوا قدوة له في التواضع والمحبة والاحترام والمساعدة...وبهذه المزايا يتعامل معهم ومع الطلاب وكذلك مع المرضى الذين يخوض مع عدد منهم تجارب رهيبة في الصراع مع الموت الذي يشعر به من دون أن يراه في تلك الدقائق الصعبة التي يكون فيها المريض بين الحياة والموت... بين الاستمرار و»النهاية»...وأمام هذه الحالات لا يستطيع الطبيب الا أن يكون مؤمنا بالله، بتلك القوة العظيمة، فالطب نفسه يجعل الانسان يدرك عظمة الخالق في صناعة الانسان الذي يشكل عمل دماغه وأعضائه كافة تحفة علمية ما زال الكثير من جوانبها عصيّا على العلم والطب حتى اليوم...

وبعيدا عن العمل يصف البروفسور نفسه ب»الكسول» لأن لا وقت لديه للرياضة، فهو بعد ساعات العمل الطويلة وضغوطها يسترخي بقراءة الكتب الطبية والروائية أو يستمع الى الموسيقى على أنواعها وبخاصة موسيقى الرحابنة وفيروز وسميرة توفيق والموال اللبناني...

البروفسور عبدو جرجس يقدم درع الجمعية لتقدم العلوم الى البروفسور برباري بحضور رئيس الجامعة العربية